

التحرير والتنوير

و (خشب) بضم الخاء وضم الشين جمع خشبة بفتح الخاء وفتح الشين وهو جمع نادر لم يحفظ إلا في ثمرة وقيل ثمر جمع ثمار الذي هو جمع ثمرة فيكون ثمر جمع جمع . فيكون خشب على مثال جمع الجمع وإن لم يسمع بدنه .

وقرأه الجمهور بضمين . وقرأه قنبل عن ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ويعقوب بضمه فسكون .

والمسندة التي سندت إلى حائط أو نحوه أي أميلت إليه فهي غليظة طويلة قوية لكنها غير منتفع بها في سقف ولا مشدود بها جدار . شبهوا بالخشب المسندة تشبيه التمثيل في حسن المرأى وعدم الجدوى أفيد بها أن أجسامهم المعجب بها ومقالهم المصغى إليه خاليان عن النفع كخلو الخشب المسندة عن الفائدة فإذا رأيتموهم حسبتموهم أرباب لب وشجاعة وعلم ودراية . وإذا اختبرتموهم وجدتموهم على خلاف ذلك فلا تحتفلوا بهم .

(يحسبون كل صيحة عليهم) هذه الجملة بمنزلة بدل البعض من مضمون جملة (كأنهم خشب مسندة) أي من مخالفة باطنهم المشوه للظاهر المموه أي هم أهل جبن في صورة شجاعة . وهذا من جملة ما فضحته هذه السورة من دخالهم ومطاوي نفوسهم كما تقدم في الآيات السابقة وإن اختلفت مواقعها من تفنن أساليب النظم فهي مشتركة في التنبيه على أسرارهم . والصيحة : المرة من الصياح أي هم لسوء ما يضمرونه للمسلمين من العداوة لا يزالون يتوجسون خيفة من أن ينكشف أمرهم عند المسلمين فهم في خوف وهلع إذا سمعوا صيحة في خصومة أو أنشدت ضالة خشوا أن يكون ذلك غارة من المسلمين عليهم للإيقاع بهم . و " كل " هنا مستعمل في معنى الأكثر لأنهم إنما يتوجسون خوفا من صيحات لا يعلمون أسبابها كما استعمله النابغة في قوله : .

بها كل ذيال وخنساء ترعوي ... إلى كل رجاف من الرمل فارد وقوله (عليهم) ظرف مستقر هو المفعول الثاني لفعل (يحسبون) وليس متعلقا ب (صيحة) .

(هم العدو فأحذرهم) يجوز أن تكون استئنفا بيانيا ناشئا عن جملة (يحسبون كل صيحة عليهم) لأن تلك الجملة لغرابة معناها تثير سؤالا عن سبب هلعهم وتخوفهم من كل ما يتخيل منه بأس المسلمين فيجاب بأن ذلك لأنهم أعداء أعداء للمسلمين ينظرون للمسلمين بمرآة نفوسهم فكما هم يترصبون بالمسلمين الدوائر ويتمنون الوقعة بهم في حين يظهر لهم المودة كذلك يظنون بالمسلمين التربص بهم وإضرار البطش بهم على نحو ما قال أبو الطيب :

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه ... وصدق ما يعتاده من توهم ويجوز أن تكون الجملة بمنزلة العلة لجملة (يحسبون كل صيحة عليهم) على هذا المعنى أيضا .
معرفتها المسلمين تهم أحوالهم من حالة لذكر ابتدائيا استئنافا تكون أن ويجوز A E ليترتب عليها تفريع (فأحذرهم) وعلى كل التقادير فنظم الكلام واف بالغرض من فصح دخائلهم .

والتعريف في (العدو) تعريف الجنس الدال على معين كمال حقيقة العدو فيهم لأن أعدى الأعداء العدو المتظاهر بالموالاة وهو مداح وتحت ضلوعه الداء الدوي . وعلى هذا المعنى رتب عليه الأمر بالحذر منهم .

والعدو : اسم يقع على الواحد والجمع . والمراد : الحذر من الاغترار بطواهرهم الخلافة لئلا يخلص المسلمون إليهم بسرهم ولا يتقبلوا نصائحهم خشية المكائد .
والخطاب للنبي A ليبلغه المسلمين فيحذروهم .

(قاتلهم ا□ أنى يؤفكون [4]) تذييل فإنه جمع على الإجمال ما يغني عن تعداد مذامهم " كقوله (أولئك الذين يعلم ا□ ما في قلوبهم) " مسوق للتعجب من حال توغلهم في الضلالة والجهالة بعدولهم عن الحق .

فافتح التعجب منهم بجملة اصلها دعاء بالإهلاك والاستئصال ولكنها غلب استعمالها في التعجب أو التعجب من سوء الحال الذي جره صاحبه لنفسه فإن كثيرا من الكلم التي هي دعاء بسوء تستعمل في التعجب من فعل أو قول مكروه مثل قولهم : ثكلته أمه وويل أمه . وترتّب يمينه . واستعمال ذلك في التعجب مجاز مرسل للملازمة بين بلوغ الحال في السوء وبين الدعاء على صاحبه بالهلاك وبين التعجب من سوء الحال . فهي ملازمة بمرتبتي كناية رمزية